(المقالات والآراء)

الحارث بن أسد المحاسبي

من الروَّاد الأوائل في قصص المعراج وتخيُّل صور الحياة الآخرة

د. عبد الكريم اليافي

وُلد الحارث بن أسد المحاسبي بالبصرة نحو ١٦٥هـ/ ٧٨١م. اسم أبيه أسد، وكنية الأسد أبو الحارث، فربما سمَّى ابنَه الحارث توكيدًا لهذه الكنية.

جاء الفتى باكرًا إلى بغداد، وكانت إذ ذاك عاصمة الدنيا في العلم والحضارة والازدهار، ونشأ نشأة حافلة بالتقوى والفقه والعلم. وتوفي عام ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م. وهو من كبار الصوفية، وأوائل علماء الكلام، وأعلام الوعّاظ البلغاء.

وأبرزُ ما في سيرة حياته وَعظُه وتعليمه، وكتبه الكثيرة، التي تزيد على المئة، والتي يتجلَّى فيها احترامُه العميق للسُّنّة، وتشدُّده الخُلُقيّ، وبيانُه الذي يعتمد الترغيبَ والترهيب. وهو يندّد بنوازع الهوى ونوازع النفس، ويدقّق في التحليلات النفسية، وبعضِ التعريفات الفلسفية. ترجم له الكثيرون.

ويُورد الإمام القشيري في رسالته، عند ترجمته له، قولَ أبي عبد الله بن خفيف للمتصوّفة: «اقتَدُوا بخَمسةٍ من شيوخِنا، والباقُون سَلِّموا لهم حالَهم: الحارث بن أسد المحاسبيّ، والجُنَيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس ابن

عطاء، وعمرو بن عثمان المكي، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق»[١].

وُلد الحارث في زمن الخليفة الهادي. ولما تولّى هارون الرشيد الخلافة كان يناهز الخامسة من العمر. وقد عاصر الأمينَ والمأمونَ والمعتصمَ والواثقَ والمتوكِّل، إذ توفي في عهده. وهكذا كان عصر الحارث أبهى عصور الخلافة العباسية، وأكثرَها غنًى ووَفرة وتألُّقًا. لقد كانت العلوم بأنواعها متقدمة أيَّ تقدُّم. وكانت الزراعة والتجارة والصناعة رائجةً أيَّ رواجٍ. كانت القوافل تجوب الطرق البريّة محملةً بأصناف السلع بين قطر وآخر. وكانت السفن تصل بين أقطار المعمورة مشحونةً بأنواع الخيرات من لباس وطعام وتوابل وغيرها.

كانت البصرة من المرافئ المزدهرة إذ ذاك، وكان الملاّحون إلى جانب حمولات مراكبهم يروُون للناس ما شاهدوه في الأقطار النائية، كالهند والصين والجزر المنتشرة في خطوط ملاحاتهم. وطفق الناس يميلون إلى سماع هذه الأخبار صحيحة أو مبالغًا فيها، وإلى قراءة ما يدوّن منها، وكذلك ما يُترجم من لغات الأقوام الأخرى. وشرعت تتكون طائفة من تلك الأخبار المرويّة والمدونة والمترجمة متعددة المصادر ومتفاوتة المقاصد. ولسوف ينضم بعضها إلى بعض في غمار السنين لتؤلِّف السيرَ الشعبية التي تأتي في طليعتها قصة «ألف ليلة وليلة».

في مقابل هذا الاتجاه المطلّ على حياة الإنسان الخارجية وظواهرها كان فريق من المفكِّرين يعكفون على تأمل النفس الإنسانية وعالم أسرارها ونزواتها،

(١) الرسالة القشيرية، للإمام القشيري (ت٤٦٥ هـ)، تحقيق: د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، القاهرة، بدون تاريخ، ١: ٧٩ .

ويفكّرون حق التفكير في مصير الإنسان بعد حياته وفي قضايا شقائه وسعادته في الدارين: الدار الدنيا والدار الآخرة. من أهم هؤلاء وأبرزهم أبو عبد الله المحاسبي الذي سلخ حياته في الوعظ والهداية محقّقًا نموذجًا علويًّا في حياته الخاصة من التقشف والصلاح ومحاسبة النفس محاسبة دقيقة حتى إنه لقّب من أجل ذلك بالمحاسِبيّ.

يقول أبو عبد الرحمن السلمي في المحاسبي: «هو أستاذ أكثر البغداديين». من أساتذته في الرواية يزيد بن هارون، وطبقته. والرواية ركن من أركان الحضارة العربية الإسلامية.

وممن روى عنه أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الصوفي، وأحمد ابن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، والشيخ الإمام الجنيد، وإسماعيل بن إسحاق السراج، والقاضي أبو علي الحسين بن خيران، وأحمد بن القاسم بن نصر، وأحمد بن عبد الله بن ميمون، وغيرهم. ولقد كان أثر المحاسبي في الإمام أبي حامد الغزالي كبيرًا، ولاسيما في كتابه «إحياء علوم الدين» فهو يذكر كتب المحاسبي، ويُورد جملاً وعبارات من كلامه.

أما كتبه المطبوعة فهي:

١– بُرء من أناب إلى الله:

نشره المستشرق الألماني هلموت ريتر بمناسبة مؤتمر المستشرقين التاسع عشر الذي عُقد في رومة (٢٣– ٢٩ أيلول ١٩٣٥).

٢– الرعاية لحقوق الله عز وجل:

نشرته المستشرقة الإنكليزية مرغريت سميث:

Margraet smithe. J. W. Gill memorial, New series XV. 1940.

٣- كتاب التوهم:

عُني بنشره المستشرق الإنكليزي الدكتور أ. ج. أربري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧ وقدَّم له أحمد أمين.

٤- رسالة المسترشدين:

حقَّقها وأخرج أحاديثها وعلَّق عليها عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب الفرافرة ١٣٨٤/ ١٩٦٤.

٥- الوصايا والنصائح الدينية والنفحات القدسية لنفع جميع البرية:

نشره عبد القادر أحمد عطا، القاهرة ١٣٨٤/ ١٩٦٤.

٦- العقل وفهم القرآن:

قدَّم له وحقَّق نصوصه حسين القوتلي، الطبعة الثانية، دار الكندي ودار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨.

٧- المسائل في أعمال القلوب والجوارح والعقل:

نشره عبد القادر أحمد عطا، القاهرة ١٩٦٩.

ومن كتبه المشهورة:

٨- الدِّماء:

يرى فيه أن الدِّماء التي أُريقت بين الصحابة لا تمسّ وحدة العقيدة. جاء في كتاب تاريخ بغداد «وذكر أبو علي بن شاذان يومًا كتابَ الحارث في الدِّماء، فقال: على هذا الكتاب عوّل أصحابنا في أمر الدماء بين الصحابة».

٩- رسالة المكاسب والورع والشبهات.

١٠- رسالة العظمة.

١١- المسائل في الزهد.

١٢- كتاب التفكر والاعتبار.

١٣- رسالة المراقبة.

١٤- فصل في المحبة، ذكره أبو نعيم في الحلية.

١٥- القصد والرجوع إلى الله.

وممن تناول الحارث بن أسد المحاسبي بالبحث والدراسة المستشرقة مرغريت سميث في كتابها:

An Early Mystic of Bagdad, a study of the life and teaching of Harith B. Asad al- Muhäsibï, Ad 781- ad 857 London Sheldon Press, 1935.

والشيخ عبد الحليم محمود في كتابه:

Al Mohasibi un mystique musulman religieux et moraliste, Geuthner, Paris, 1940.

وهو رسالة نال بها شهادة الدكتوراه.

والمستشرق الألماني. فان إس J. Van Ess في كتابه:

Die Gendankenwelt des Harit al Muhasibï anhand von ülersetzungen aus seinen Schriftenn dargestellt und erlaütert, 1961- Bonn.

وفي هذا الكتاب عرض واسع لمؤلَّفات الحارث.

وكنا قد فصَّلنا ذلك في مقال نشرناه في مجلة «التراث العربي»، العدد (٤١).

كيف ألفّ الحارث كتاب التوهُّم

يروي أبو نعيم في الحلية أن أبا القاسم الجنيد بن محمد قال: «كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا فيقول: اخرج معي نُصْحِر فأقول له: تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول:

اخرج معي ولا خوف عليك. فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء، لا نرى شيئًا نكرهه. فإذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي: سلني، فأقول له: ما عندي سؤال أسألك. فيقول: سلني عما يقع في نفسك. فتنثال عليّ السؤالات فأسأله عنها، فيجيبني عليها للوقت ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتبًا» (٢).

ونفهم من هذا الخبر قوة شخصية المحاسبي. فقد كانت تهيمن على مريده الجنيد وهو ما هو ذكاءً وفضلاً وعلمًا، حتى كانت شوارع بغداد عاصمة الدنيا، إذ ذاك، تبدو فارغة من المفاتن وتلك «الشهوات والآفات»، ثم إن التنزُّه والجلوس في خارج المدينة كانا يُسبلان الهدوء والارتياح والطمأنينة عليهما، ثم إن السؤال والجواب كانا وسيلتين للمحاورة، واقتداح الفكر، ووضوح التصورات، وتداعي الخواطر، وارتسام بعض الكلمات، وتبلّر الجُمَل، حتى إذا آب الأستاذ إلى منزله حرص على تقييدها.

ويروي صاحب الحلية أن الحارث كان يقول في إحدى مواعظه: «افهَم ما أقول لكَ، وفرِّغ للفكرة فيه عقلَك، وأدِمْ له توهُّمَك، وتوَهَّمْه بذهنك، وأحضِرْ لُبَّك، واشتغِل بذكره، وبقَطع كلِّ مذكورٍ سواه، ومُتوَهَّمٍ غيرِه. فإنا خُلِقنا للبلوى والاختبار، وأُعِدَّ لنا الجنةُ أو النار، فعظُم ذلك الخطر، وطال به الحُزن، لمن عقِل وادّكر، حتى يعلم أين يكون المصير والمستقرّ، ذلك بأنه عصى الرَّبّ، وخالَفَ المولى، وأصبح بين الغضب والرِّضا، لا يدري أيُّهما قد حل به ووقع، فعظُم لذلك غَمُّه، واشتدَّ به كربُه، وطال له حُزنُه، حتى يعلم كيف عند الله

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ الأصبهاني (ت٤٣٠ هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٣٨، ١٠: ٣٥٥ .

حالُه. فإليه فارغَبْ في التوفيق، وإيّاه فسَلِ العَفوَ عن الذنوب، واستعِنْ بالله في كل الأمور. فالعَجب كيف تقرّ عينُك، أو يزول الوجل عن قلبك، وقد عصيتَ ربَّك، والموتُ نازلٌ بكَ لا محالة بكُرَبِه وغُصَصِه ونَزعه وسكراته. فكأنه قد نزل بك وشيكًا، فتوهَّمْ نفسَك وقد صُرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك، فتوهَّمْ ذلك بقلب فارغ وهِمّة هائجة من قلبك بالرحمة لبدنك الضعيف، وارجِعْ عمّا يكرَهُ مولاك وترضى، عسى أن يرضى عنك، وأعتِبْه واستقِلْه عثراتِك، وابكِ من خشيته عسى أن يرحم عَبَراتِك. فإن الخَطب عظيمٌ، والموت منك قريب، ومولاك مطّلع على سِرِّكَ وعلانيتك، واحذر نظَرَه إليك بالمقت والغضب وأنت لا تشعر، فأجِلَّ مقامَه، ولا تستخفّ بنظره، ولا تتهاون باطّلاعه، واحذره، ولا تتعرض لمقتِه، فإنّه لا طاقة لك بغضبه، ولا قوة لكَ بعذابه»[٣].

وإذا طالعنا كتاب «التَّوهُّم» وجدْنا هذه الجمل تكاد تكون هي نفسها في مستهله. أي إن هذا الكتاب أصله موعظة مؤثّرة عمد قائلها بعد إلقائها إلى توسعتها واستكمالها على شكل كتاب، وجعَلَ لفظَ التوهم المتكرر فيها عنوانًا له. وهو يطلب إلى السامع، ثم بعده إلى القارئ، أن يتوهم حال الموت، وما بعدها من نُشور وحساب، وجحيم أو نعيم، كما يفصّل المؤلِّف ذلك في كتابه تفصيلاً بديعًا ورائعًا، أقرب ما يكون إلى الترغيب والترهيب، والعمل على إصلاح النفس وتحسين السلوك والمعاملة.

ولا شك أن أمثال هذه المواعظ كانت تُلقى بلغة سهلة وبيان واضح وقوة جازمة وحازمة ومؤثِّرة، ولاسيما إذا كان الإلقاء في حشد جماهيري، كما يحدث

(٣) حلية الأولياء ١٠: ٩٠- ٩١.

ذلك في المساجد، لأن التجمع والاحتشاد أقوى على العدوى النفسية وأسهل للتلقين وأفعل في تطهير النفوس وتصفية الضمائر، وكذلك إذا كان الواعظ أهلاً للوعظ ومتميزًا بالأمانة ورفعة المكانة ومحطّ الأنظار في التقشف والزهد والتقوى والعبادة.

اهتمّ بمخطوطة «التوهُّم» المستشرق الإنكليزي أرثر أربري الذي درّس في كلية الآداب بالجامعة المصرية سابقًا، ونشره لأول مرة في القاهرة عام ١٩٣٧، ويقع في ٦٣ صفحة، مع مقدمة موجزة قدَّمها له الباحث المشهور أحمد أمين صديق المستشرق.

وقد أعاد طبعه ونقله إلى الفرنسية، مع مقدمة وحواش وتعليقات مفيدة، المستشرق أندري رومان André Roman في كتابه:

Une Vision Humaine des Fins Derniéres, Le kitäb al-Tauahhum d ál Muhäsibi, Librairie c. Klincksieck Paris 7- 1978.

ويبدو لنا أنه اعتمد النص الذي أخرجه أربري لأن في الطبعتين بعض الأخطاء اللغوية أنفسها. ففي الصفحة الثانية من نسخة أربري والفقرة الثامنة من نسخة رومان:

فذلّت نفسُك لما عايَنتَ ذلك، وعايَنتَ وجهَ ملك الموت...

والصواب: لما عانَيتَ ذلك.

وفي الصفحة العاشرة في النسخة الأولى والفقرة الرابعة والثلاثين في النسخة الثانية:

فلم يحاسّ (؟) من الخلائق أحدًا.

والصواب فلم يحُاشِ بالشين أي لم يستثن.

وفي الصفحة الثلاثين من النسخة الأولى فمثّلك (؟) لا تجاب.

وفي الفقرة المئة من النسخة الثانية فمَثّلْك لا تجاب.

والصحيح فَمِثْلُكَ لا تجاب أو لا يجاب، أي أنت أقل من أن تجُاب.

والتعبير أدبي شائع في اللغة العربية يذكره علماء البلاغة في إثبات الحكم بطريق الكناية التي هي أبلغ كقولك: مِثلُك لا يَبخل، بمعنى: أنت لا تبخل. وذلك في بحث تقديم المسند إليه كاللازم. ثمة أخطاء أخرى من السهل تلافيها.

يشعر القارئ لكتاب «التوهُّم» إلى جانب الشعور الديني العميق كأنه يُطالع رواية. لكن أحداث هذه الرواية تبدأ عند كرب النزع، لتصِفَ غصصَ الموت، وأحوال القبر، وأهوال الحشر والحساب، والمرور على الصراط، والعرض على الجحيم، والفوزَ بالنعيم، وتشرح كل ذلك شرحًا مفصَّلاً وطريفًا، يترجَّح بين الخوف والرجاء، والترهيب والترغيب، وتترقّى الرواية شيئًا فشيئًا لتصف عذابَ جهنم لمن حق عليهم العذاب، ونعيم الجنان لمن فازوا بحُسن المآب، ثم تلك الغبطة الكبرى وهي النظر إلى وجهه تعالى.

لا نريد أن نذكر بعض الصور المخيفة في النشور وفي الحساب وفي عذاب أهل النار، بل نترك ذلك للذين يرجعون إلى الكتاب نفسه. ونُؤثر أن نذكر صورًا من مباهج أهل الجنة.

فالسعيد الفائز، الذي يدخل إلى الجنة، يُستَقبل بموكب عظيم تقوم بين يديه القَهارِمة، أي الوكلاء، معظِّمين له، ثم الوصفاء والخدام، كأنهم جميعًا اللؤلؤ المكنون، يزفونه زفًا إلى قصره وما أُعدّ له من نعيم مقيم. ولا يكاد يصل إلى باب قصره حتى تَفتح له الحُجّابُ الأبوابَ وتَرفع له الستورَ، وهم قيام على

أقدامهم معظِّمين، فيرى بهجة مقاصير قصره، وزينة أشجاره، وحُسن رياضِهِ، وتلألُؤ صحنه، ونُور ساحاته. وينادي خدامُه أزواجَه فيُقبلن فرحات مستبشرات مشتاقات شائقات، يتوثبن من على الفُرُش والحجال. فيُبصر تلك الأبدان الرخيمة الرُّعبوبة الخرّيدة الناعمة يتهادين، كلّ واحدة في حسن حُلَلها وحِليتها وصباحة وجهها وتثنّي بدنها الناعم وغنج عينيها، فيبقى كالمبهوت الذاهل من عظيم ما هاج في قلبه من سرور وما رأت عيناه من جمال. كلّ زوجة منهن قد استخفها العشق فتناديه: يا حبيبي ما أبطأكَ علينا؟ فيجيبها: مازال الله عزَّ وجل يوقفني على ذنب كذا وكذا، حتى خشيت ألاّ أصل إليكنّ. فيمشين نحوه في السندس والحرير يُثِرنَ المسكَ ويحركن نبت الزعفران بأذيال حللهن وخلاخيلهن استعجالاً وشوقًا وعشقًا. ثم يصف المحاسبي أصناف العناق والضمّ والشمّ وطيب العوارض، حتى يَغرق قلبُ ذلك السعيد في السرور، ويمتلئ فرحًا مما وصل إلى روحه من طيب مسيس كلٍّ منهن، ولذة روائح عوارضهن. ﴿لِمثلِ هذا فلْيَعمَلِ العامِلُونَ﴾. (الصافات ٦١).

ولكن تلك المباهج كلها، مع عظمتها وأبَّهتِها، ليست تُقاس إلى البهجة القصوى واللذة الكبرى. وهي دعوته سبحانه وتعالى أولياءه إلى لقائه في ساحة عرشه. ويفيض المحاسبي في وصف مَجالِي تلك الدعوة وذلك المجلس وطيبه وعظمته وزرابيّه ونمارقه ومنابره وكراسيّه والدراريّ واليواقيت فيه. وكلٌّ من الأولياء قد عرف مكانه ومدى قربه من العزيز الرحيم. هذا مع اصطفاف الملائكة واطمئنان المجلس ورفاهية الموائد.

لقد ذكرنا في مستهلّ الحديث أن المحاسبي من روّاد علم الكلام. كان المعتزلة يمنعون رؤية الله حتّى في الآخرة، وكان أهل السنة يجيزونها في الآخرة،

ويعدُّونها أبهج المباهج، فكان غرض المحاسبي من وراء الوعظ والترغيب أن يردّ على المعتزلة. ولم يكن تصويره لأحوال النعيم إلاّ تدرجًا لتجاوزها، والوصول إلى الغبطة الروحية الكبرى، التي هي النظر إلى وجهه تعالى في دار القرار.

إن المرجع الأول للإسراء والمعراج ولوصف أحوال الآخرة هو القرآن الكريم والسنّة الشريفة. وكان العلماء يجُرون الكلام على ظاهره، ويفسرونه كما ورد من غير تعرّض في الغالب للتأويل، ويقتصرون ما أمكن في تلك الأوصاف على ما جاء في الشرع، ولا حاجة لمستزيد، حرصًا على نقاء الشرع وصفائه، وتوقيًا للجنوح إلى ما لا ينبغي. ومع ذلك فإن أحوال الآخرة يبقى فيها نصيب كبير من الغموض. وهذا سرّ من أسرار الدين. وذلك أن الأوصاف الحسية تقريب للأذهان من الحقائق الخفية. جاء في القرآن الكريم: ﴿نَحنُ قَدَّرْنا بَينَكُمُ الموتَ وما نَحنُ بِمَسبُوقِينَ عَلَى أن نُبَدِّلَ أمثالَكُم ونُنشِئَكُم فِيما لا تَعلَمُونَ﴾(الواقعة: ٦٠، ٦١). وهذا معناه أن حقائق النشأة الأخرى لا يعلمها إلاّ هو عز وجل. وإنما شأن الإنسان أن يعمر هذه الدنيا عمارة صالحة فهي سبيل الخلود.

كان المحاسبي بليغ الكلام يأخذ وعظُه بمجامع القلوب ويخلب الأسماع ويستدرّ الدموع. وقد بلغ خبرُ وعظه وبلاغته الإمامَ أحمد بن حنبل فسأل صديقًا للحارث، كان يجتمع عنده الحارث وأصحابه، أن يُتيح له الاستماع إليه من وراء حجاب. ثم لما سأله عن رأيه في الحارث ومواعظه وجده يبكي متأثرًا وقال: ما سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل. ولكن أوصاه ألاّ يصحبه ولا يصحب جماعته خوفًا من الغلوّ والانحراف إلى ما لا ينبغي. وأنكر على الحارث نظرَه في علم الكلام.

كان الإمام أحمد قد تعرّض لمحنة خلق القرآن وزُجّ في السجن. فلما خرج في زمن الواثق ثم قرّبه المتوكل عظُمت منزلته الاجتماعية فوق ما هي عليه من علم واسع بالحديث وبالفقه. ولما أنكر على الحارث نظرَه في علم الكلام، واستفاضتَه في وعظه، والاعتماد على بعض الأحاديث الضعيفة، انقطع الحارث عن نشاطه. ولما مات لم يصلّ عليه إلاّ أربعة نفر كما جاء في تاريخ بغداد.

كانت خزائن التراث العربي نهبًا مقسَّمًا بين المترجمين اللاتين في كل ميدان من ميادين المعرفة والعلم. وكان من حُسن حظ الشاعر الإيطالي دانتي أن يطّلع على ترجمة قصة من قصص المعراج أثارت خياله الشاعري فكتب كوميدياه الإلهية. ولكنه تنكّر لينبوع إلهامه ومنهل خياله. شأنُه في ذلك شأن الغربيين في القرون الوسطى. ﴿وتِلكَ الأيّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ﴾(آل عمران: ١٤٠) و﴿يُؤتِي الحِكمةَ مَن يَشاءُ﴾ (البقرة: ٢٦٩).